

**توظيف المنهج الانثروبولوجي الاستشراقي الفرنسي في الدراسات التاريخية للغرب
الاسلامي - "غوستاف لوبون" أنموذجا**

*Employing the French Orientalist anthropological approach in
historical studies of the Islamic West. "Gustave Le Bon" as an Example.*

د. بودربالة مسعود

المخبر: الدراسات العقدية ومقارنة الأديان

جامعة الامير عبد القادر – قسنطينة-

m.bouderbala@univ-emir.dz

تاريخ الاستلام 2026/04/07 تاريخ القبول 2026/05/07

ملخص

اهتم رواد الفكر الغربي من المستشرقين بدراسة أسس ومعالَم الحضارة العربية الإسلامية عبر مراحل تاريخها، بغايات وأهداف مختلفة، وانتهجوا أساليب تراوحت بين الانصاف والاحفاف، تبعا لطبيعة المشروع الفكري الذي ينتمي إليه المستشرق، ودوافع كتاباته في علوم العرب والمسلمين، خاصة أولئك الذين وظفوا المنهج الأنثروبولوجي في إسقاط الأحكام بخلفيات مريبة، وقد كان من بينهم؛ المؤرخ والفيلسوف الفرنسي "غوستاف لوبون" Gustave Le Bon الذي كان من الشخصيات المثيرة للجدل، وذلك حسب أطروحاته، وتعدد نشاطاته الفكرية التي شملت مختلف المجالات، ومدى أثرها على الأفكار في المجتمع، وقد اعتمدت إنتاجاته المعرفية كمرجع علمي مهم، وذلك باعتبار لوبون مفكرا عالميا متعدد التخصصات، ومؤلفا للعديد من الكتب والدراسات في مختلف الإطارات الفكرية والنفسية، بالإضافة إلى أن تقديمه للحضارة العربية الإسلامية أبان عن منهج موضوعي في الغالب، ولعل دراسته المعنونة بـ " حضارة العرب " من أهم ما حظي بالاهتمام في دوائر المفكرين خاصة العرب والمسلمين.

من خلال هذا البحث سأتبين أهمية هذا الموضوع في المقاربة التاريخية لكتابه " حضارة العرب " وذلك بدراسته دراسة أهم موضوعاته دراسة تحليلية ونقدية، وذكر أهم الافتراءات والأغاليط التي

وقع فيها بشأن الحضارة الإسلامية عامة، والغرب الإسلامي خاصة، وبيان نظرة غوستاف لوبون لسكان الغرب الإسلامي، باعتبار هناك روابط استعمارية بينها وبين أوروبا.

الكلمات المفتاحية: الاستشراق، الأنثروبولوجيا، التاريخ الإسلامي، الغرب الإسلامي، غوستاف لوبون.

Abstract

Western pioneers of thought among the Orientalists showed sustained interest in studying the foundations and defining features of Arab–Islamic civilization across the various stages of its history, driven by diverse aims and objectives.

*They adopted approaches that ranged between fairness and partiality, depending on the nature of the intellectual project to which the Orientalist belonged and the motivations underlying his writings on the sciences of the Arabs and Muslims—particularly those who employed the anthropological method to project judgments informed by questionable background assumptions. Among them was the French historian and philosopher Gustave Le Bon, who was regarded as a controversial figure, in light of his theses, the multiplicity of his intellectual activities spanning different fields, and the extent of their influence on societal ideas. His scholarly productions were adopted as important academic references, given that Le Bon was considered a global, multidisciplinary thinker and the author of numerous books and studies across various intellectual and psychological frameworks. In addition, his presentation of Arab–Islamic civilization generally revealed an objective method, and his study entitled *The Civilization of the Arabs* was perhaps among the works that received the greatest attention within intellectual circles, particularly among Arabs and Muslims.*

*Through this research, I will demonstrate the importance of this subject within the historical approach adopted in his book **The Civilization of the Arabs**, by undertaking an analytical and critical study of its principal themes, identifying the most significant allegations and inaccuracies into which he fell concerning Islamic civilization in general and the Islamic West in particular, and clarifying Gustave Le Bon's view of the inhabitants of the Islamic West, considering the existence of colonial ties between that region and Europe.*

Keywords: Orientalism, Gustave Le Bon, Anthropology, Islamic history, Islamic West.

تمهيد:

إن الاستشراق الحديث أكثر إنصافاً، وأقرب إلى المنهج العلمي، فلم يعد ينظر إلى الحضارة الإسلامية بوصفها "نقيضاً للحضارة الغربية"، بل شريكاً تاريخياً في بنائها، لكنه ما زال يحمل بعض التحديات، أهمها: التحيز الثقافي الخفي، أو ضعف فهم الخلفية الدينية للنصوص الإسلامية.

ومن خلال هذا البحث سنقف عند شخصية استشراقية مرموقة يُنظر إليه على أنه نموذج قريب إلى الانصاف في ما بحث فيه من التاريخ والحضارة الإسلامية، يتعلق الأمر بالمستشرق الفرنسي غوستاف لوبون وموقفه من تاريخ الغرب الإسلامي.

غوستاف لوبون وتكوينه المعرفي¹:

ولد غوستاف لوبون في مقاطعة لوجون لوروترو (Nogent-Le-Rotrou) في منطقة النورماندي في 07 ماي 1841، في عائلة بورجوازية، كان والده يشغل منصب محافظ الرهن العقاري، تدرج في العليم إلى دخل كلية الطب في باريس، حيث حصل على درجة دكتور عام 1866، بعدها بسنوات في مجال الطب توجه إلى مجال الأنثروبولوجيا، وعكف كذلك على دراسة علم النفس، وقد كتب في عديد المجالات، بدأها بعلم الطب، ثم في علم الفيزياء، فالآثار وعلم الأنثروبولوجيا، وانتهى بالتاريخ وعلم الاجتماع.

رغم أن غوستاف لوبون كان من الشخصيات المثيرة للجدل، بسبب أطروحاته، وتعدد نشاطاته الفكرية التي شملت مختلف المجالات، ومدى أثرها على الأفكار في المجتمع، إلا أنها أعتمدت كمراجع علمية مهمة، وذلك باعتبار لوبون مفكراً عالمياً متعدد التخصصات، ومؤلفاً للعديد من الكتب والدراسات في مختلف الميادين الفكرية والنفسية، بالإضافة إلى أن تقديمه للحضارة العربية الإسلامية أبان عن منهج موضوعي في الغالب، ولعل دراسته المعنونة بـ " حضارة العرب " من أهم ما حظي بالاهتمام في دوائر المفكرين خاصة العرب والمسلمين .

من خلال هذا البحث سأيّن أبعاد هذا الموضوع والمقاربة التاريخية لكتابه " حضارة العرب " وذلك بدراسة أهم موضوعاته المتعلقة ببلاد المغرب (شمال افريقيا)؛ دراسة تحليلية ونقدية، وذكر أهم الافتراءات والأغاليط التي وقع فيها بشأن الحضارة الإسلامية عامة، والغرب الإسلامي خاصة، وبيان نظرة غوستاف لوبون لسكان هذه المنطقة، باعتبار هناك روابط استعمارية بينها وبين أوروبا.

غوستاف لوبون: الأنثروبولوجي النائر والمنصف الجدلي

عُرف غوستاف لوبون بأنه من أبرز فلاسفة الغرب المعاصرين الذين تناولوا الأمة العربية والحضارة الإسلامية بقدر من الإنصاف في عرض بعض حقائقها التاريخية والحضارية، فقد خالف في هذا الجانب عددًا من مؤرخي أوروبا الذين درجوا على إنكار أثر الإسلام وإسهامه في تطور الحضارة الغربية.

ومن خلال رحلاته إلى العالم الإسلامي وإجرائه لعدد من الدراسات الاجتماعية فيه، أقرّ لوبون بالدور الحضاري الذي أدّاه المسلمون في تمدين أوروبا، وسعى إلى إحياء صورة العصر الذهبي للمسلمين، وإبرازها للعالم في صورتها الحقيقية. ومع ذلك، عُرف لوبون بتبنيه لبعض الأفكار المرتبطة بالنزعة العنصرية ومواقفه النقدية تجاه الديمقراطية، كما وجّه انتقادات حادة للسياسات الاستعمارية التي انتهجتها الدول الأوروبية، وقد تجلّى ذلك في كتاباته التي انتقد فيها بشدة ممارسات الفرنسيين في الجزائر، من ظلم واستغلال، ونزع للأراضي، وتشريد للسكان في الصحراء وغيرها من أشكال القهر والاستبداد.

المسار العلمي والرحلات الاستكشافية

اعتبر لوبون نفسه وريث عصر التنوير، وسخر حياته لتوثيق تاريخ الحضارات العظمى، ولم يكتفِ بالتنظير، بل جسّد شخصية "المستكشف العلمي" الذي يضع الترحال في خدمة المعرفة، وهو ما أهله لنيل عضوية جمعيتي الجغرافيا والأنثروبولوجيا، الأمر الذي أضفى على دراساته طابعًا أنثروبولوجيًا واضحًا، ولم يكن مجرد سائح، بل جسّد نموذج الباحث المستكشف الذي يوظف الرحلة في خدمة المعرفة العلمية، حيث كان عضوًا في جمعية الجغرافيا وجمعية الأنثروبولوجيا، وهو ما ساعده على إنتاج عدد من الأعمال المتميزة حول الحضارات العالمية الكبرى، توزعت رحلاته الاستكشافية (1881-1884)² على مناطق جغرافية واسعة امتازت بظروف اجتماعية مختلفة وبيئة فكرية متباينة ومن أهمها:

- شمال أفريقيا: شملت تونس والجزائر والمغرب.
- الشرق الأوسط: زار لبنان، مصر، فلسطين، سوريا، تركيا، العراق، وصولاً إلى أصفهان وسمرقند.

النتاج المعرفي والمؤلفات الكبرى

أثمرت رحلاته في أوروبا وأفريقيا وآسيا عن دراسات أنثروبولوجية رائدة، تداخلت فيها الانطباعات الشخصية مع الرصد العلمي الدقيق، ومن أبرز محطاته التأليفية:

- رحلة في جبال تاترا (1881): باكورة أعماله الأنثروبولوجية التي مزجت بين العلم والانطباع الذاتي.
- رحلة إلى الهند (1884): بتكليف رسمي من وزارة التعليم الفرنسية، أنتج خلالها أربعة مجلدات ضخمة، تميزت بتوثيق بصري ومصور هو الأول من نوعه في ذلك الوقت.
- موسوعة الحضارات: توج رحلاته بمؤلفات عن كل منطقة زارها، وكان درة أعماله كتابه الشهير "حضارة العرب"، الذي يُعد مرجعاً أساسياً في فهم عبقرية الحضارة الإسلامية.

التحول نحو الأنثروبولوجيا وعلم النفس الاجتماعي

انتقل غوستاف لوبون في مساره الفكري نحو دراسة الإنسان والمجتمعات من منظور أنثروبولوجي صرف، حيث سعى لوضع تصنيف علمي للأجناس البشرية استناداً إلى القياسات التشريحية وتحليل "مورفولوجيا" الجمجمة.

ومن رحم هذه الدراسات، تبلور عمله الرائد "سيكولوجية الجماهير"، الذي حل فيه سلوك الأفراد ضمن المجموعات أثناء الأحداث التاريخية الكبرى، واضعاً بذلك الحجر الأساس لضبط علمي جديد هو "علم النفس الاجتماعي".

موسوعة الإنصاف التاريخي "حضارة العرب" (1884):

يُعد كتاب "حضارة العرب" (La Civilisation des Arabes) "أحد أعمدة الدراسات الاستشراقية ذات الطابع الأنثروبولوجي. وفيه استعرض لوبون عناصر العبقرية العربية وتأثيرها العالمي، محاولاً استقصاء أسباب ازدهار هذه الحضارة وعوامل أفولها بمنهج اتسم بالموضوعية والإنصاف.

أهم محاور الكتاب وهيكلته المعرفية: حيث خصص المحور الخامس من الكتاب رسم فيه لوبون خارطة طريق شاملة لتاريخ العرب، شملت³:

- الجذور التاريخية ونشأتهم وأصول معارفهم: إذ تناول جغرافيا شبه الجزيرة العربية، وأعراق العرب وأحوالهم قبل البعثة النبوية، مع تحليل أثر القرآن الكريم في صياغة قوتهم.
- الانتشار الجغرافي: تتبع الدولة العربية الإسلامية في مراكزها الكبرى (سوريا، بغداد، بلاد فارس، الهند، مصر)، وصولاً إلى الأندلس وصقلية وفرنسا، متناولاً حقبة الحروب الصليبية.
- البنية الاجتماعية والثقافية: غاص في طبائع العرب ونظمهم الاجتماعية، وعادات أهل المدن، ومكانة المرأة في الشرق، إضافة إلى الجوانب الأخلاقية والدينية.
- النتاج العلمي والفني: وثق إنجازات العرب في شتى العلوم (الفلسفة، الرياضيات، الفلك، الفيزياء، الطب) وفي الفنون (العمارة، الرسم، والحفر).
- السهام الحضاري : اختتم دراسة هذا المحور بتحليل الحركة التجارية العربية، وأثر العرب المتبادل مع شعوب الشرق والغرب.

غوستاف لوبون والمسألة اليهودية: "دور اليهود في الحضارة"

في مؤلفه المثيرة للجدل "دور اليهود في تاريخ الحضارات" (Rôle des juifs dans la civilisation)، تناول غوستاف لوبون مسألة نشأة الدولة وتكوّن القوميات في أوروبا، وانعكاس ذلك على أوضاع الجماعات اليهودية التي عاشت آنذاك في عزلة داخل ما عُرف بـ "الغيتو اليهودي"، مسلطاً الضوء على مشاعر العداء التي كانت سائدة تجاههم آنذاك.

ويمكن تلخيص رؤيته في النقاط التالية⁴:

- الاندماج مع الفكر الأوروبي المعاصر: تبني لوبون موقفاً متشدداً يتماشى مع الاتجاهات السائدة لدى بعض مفكري عصر كـ "هيجل" و"ماكس فيبر"، حيث شاطرهم الرؤية التي تنظر إلى الجماعات اليهودية كعنصر غريب أو "مصدر للاضطرابات" داخل النسيج الاجتماعي الأوروبي.
- نقد الشعائر والمعتقدات: وصف لوبون الشعائر اليهودية بأنها "بدائية" وتفتقر إلى العقلانية، مجرداً إياها من الطابع الروحي المتطور الذي نسبته لحضارات أخرى.
- نفى الدور الحضاري: سار لوبون في كتابه وفق نهج إقصائي حاد، حيث نفى عن اليهود أي دور إيجابي أو مبدع في تأسيس الحضارات القديمة، واصفاً إياهم بصفات سلبية قاسية تعكس انحيازه للأطروحات العرقية التي ميزت كتاباته الأنثروبولوجية في تلك الحقبة.

منهاج الاستشراق وموقف الباحثين العرب:

بدأت الحركة الاستشراقية بدايات بسيطة وغير منظمة ثم أصبحت بعد توالي القرون حركة ثابتة لها نظامها الداخلي الذي لا تحيد عنه، إذ يتضمن هذا النظام أهداف هذه الحركة، كما أضحت لها مؤسسات أو منظمات ضخمة علنية وسرية منتشرة في جميع أنحاء العالم، ويديرها قادة محنكين لديهم أتباع يعملون على تطبيق برامج زُودوا بها على اختلاف أنواعها وطرق تطبيقها، علما أن هؤلاء الاتباع قد يكونوا من جلدة هذه الأحكام كالاتي.⁵

1- فريق حكم على هذه الحركة ككتلة واحدة دون تجزئتها

وقد خرج هذا الفريق بمواقف انحصرت بين القبول المطلق أو الرفض المطلق أو المواجهة، وهي:

أ / موقف القبول المطلق:

تمثل هذا الموقف بالقبول المطلق والاشهار بإسهامات المستشرقين، يرى هؤلاء أن المستشرقين ساهموا في تطوير منهج نقدي للبحث في التراث الاسلامي نتج عنه ايقاظ الوعي المنهجي لدى المسلمين، مما اعطى مكانة التراث الإسلامي بين تراث الشعوب الأخرى، حيث يرى هؤلاء أن الاستشراق دفع المسلمين إلى ضرورة تطور نظامهم التعليمي، مما أدى إلى ظهور نظم تعليمية وتربوية جديدة.

ب / موقف الرفض المطلق :

لقد رفض أصحاب هذا الموقف الحركة الاستشراقية رفضا مطلقا، فلم يقبلوا أي إسهام من أناس لا يدينون بالديانة الإسلامية ومنه موقف الشيخ محمد الغزالي في كتابه الموسم ب " دفاع عن العقيدة والشريعة... ضد مطاعن المستشرقين"

ج /موقف المواجهة:

يقوم هذا الموقف على الدراسة والبحث والغوص في اسهامات المستشرقين والتعرف على مواطن الضعف في هذه الاسهامات من أجل الرد عليها.

2- الفريق الذي درس الحركة وتتبع مراحل تطورها

حيث أصدر حكماً في مناهجها التي اتبعتها على أنها هي الأخرى -المناهج- تطورت على مراحل، وأن النتاج الاستشراقي يمكن أن يخدم بمناهجه الحديثة التراث الإسلامي، ويعطي دافعا جديدا للدراسات العربية.

3- فريق درس الحركة التاريخية من النشأة والدوافع والأهداف

نجد تباين في الأحكام لدى الباحثين العرب تجاه حركة الاستشراق والسبب هو أن هؤلاء الباحثين قد أصدروا أحكامهم ومواقفهم مستندين إلى آراء ومواقف المستشرقين، وخاصة اتجاه الدين الإسلامي وأهله وحضارتهم، بين منصف للإسلام ومتطرف متحامل ضد الإسلام، كأنهم يظهرون في كتاباتهم أنهم في جوانب معينة راضين ومتقبلين لتعاليم الإسلام، ومن هذه الفئة المستشرق الفرنسي غوستاف لوبون، ومنطقيا ستكون تقييمات الباحثين العرب بين الرفض والقبول لما ذهب إليه في مؤلفاته.

إن الاختلاف المنهجي للحركة الاستشراقية هو أحد أسباب اختلاف مواقف الباحثين العرب، ولكن ما يثير الشكوك للقارئ أو الدارس وخاصة العربي المسلم الذين يعرف ويؤمن بقاله تعالى في كتابه العزيز: { وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبْغِيَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنَّ ابْغَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ }⁶.

مطاعن غوستاف لوبون تناول تاريخ الغرب الإسلامي وأهله:

أولا: الطعن في أصول النسب

1- الطعن في نسب الشخصية الجزائرية

يتبنى غوستاف لوبون في طروحاته موقفاً هجومياً صريحاً تجاه العربي الجزائري، حيث ينفي عنه "الأصالة" ويصنفه ضمن فئة "المولدين" (الهجناء).

ويرى لوبون أن سكان المدن (الحضرين) في الجزائر هم نتاج تمازج أعراق مختلفة أدت سيطرة الأجانب المتتابة عليهم إلى "انحطاطهم" أخلاقيا واجتماعيا، بينما يصف الأعراب بالتمرد، معتبرا إياهم أقل اختلاطاً وانحطاطاً من سكان الحواضر.

هذا الطرح لا يمثل مجرد تحليل أنثروبولوجي، بل يحمل في طياته تهجماً على الهوية التاريخية للإنسان الجزائري.

أ- الهوية الأمازيغية بين التسمية والواقع التاريخي

تبرز إشكالية الهوية عند الحديث عن سكان المغرب العربي بين مصطلحي "الأمازيغ" و"البربر":

- الأمازيغ: هي التسمية الأصيلة والقديمة لسكان المنطقة.
- البربر: مصطلح دخيل أطلقه الغزاة (الإغريق والرومان ثم العرب) على شعوب المنطقة.

وقد وثّق ابن خلدون وجودهم بصفاتهم السكان القدامى للمغرب، الذين استوطنوا الجبال والسهول، وشيدوا نمطا حياتيا مستقرا في بيوت الحجارة والطين أو الخيام، مشكلين نسيجا بشريا ضخما ملاً أرجاء البلاد.

ب- الأصول السامية لسكان المغرب (الرؤية التاريخية والعلمية)

تذهب الكثير من الدراسات والآراء التاريخية إلى إثبات الجذور العربية السامية للقبائل الأمازيغية، وذلك عبر المسارات التالية:

- الهجرات القديمة: يُرجع مؤرخون أصل قبائل "البربر" إلى هجرات عربية سحيقة من شبه الجزيرة العربية، تلتها موجات من بلاد الشام ومصر استقرت في أقاليم المغرب.
- علم الأنسان: يشير ابن خلدون إلى اتفاق علماء النسب على أن البربر ينحدرون من جذرين عظيمين: "برنس" (البرانس) و"مادغيسن" (البترا)، ورغم اختلاف النسابين حول وحدة الأب، إلا أن الارتباط بالمنشأ المشرقي يظل حاضرا في هذه السردية.
- الدليل الأنثروبولوجي (الحفريات): عززت الاكتشافات الحديثة هذا الطرح؛ حيث كشفت الحفريات في ليبيا والجزائر عن جماجم بشرية تعود لأكثر من 50,000 عام، أظهرت تطابقاً كاملاً مع جماجم وجدت في اليمن وفلسطين.

هذا التطابق التشريحي يثبت وجود وحدة سلالية وعلاقة عضوية بين إنسان العصر الحجري في المغرب والمشرق العربيين.

- موقف المؤرخين المحدثين: يميل أغلب المؤرخين العرب والأمازيغ المعاصرين المهتمين بالأنساب إلى تأكيد هذه الأصول العربية السامية، رداً على محاولات التجزئة العرقية التي حاولت بعض المستشرقين تكريسها.

- إن محاولة لوبون "تهجين" النسب الجزائري وتجريده من أصالته تصطدم بحقائق التاريخ، وعلم الأنساب الخلدوني، والأدلة الأثرية التي تؤكد وحدة المنشأ الحضاري والبيولوجي لسكان المنطقة العربية من المحيط إلى الخليج.

إن موقف لوبون لم يكن تحليلاً محايداً، بل كان محاولة لتفتيت الكتلة التاريخية للمجتمع الجزائري لخدمة أجندات استعمارية تهدف إلى ضرب الروابط القومية. وتظل الحقائق التاريخية، مدعومة برؤية ابن خلدون واكتشافات علم الآثار الحديث، الحصن المنيع الذي يؤكد أصالة الإنسان الجزائري وعمق ارتباطه بجذوره العربية والسامية.

ثانياً: الشخصية الجزائرية بين افتراءات لوبون والواقع الحضاري

وصف غوستاف لوبون الجزائري بأنه "متمرد وكسول وقانع بوضاعة حاله، ومتفاخر بما يملك من مال ونفس، ويشارك في كل تمرد أو عصيان للتخلص من حكم الأجنبي الذي استولى على بلاده"⁷.

غير أن الواقع التاريخي والحضاري للجزائر يناقض وهذه الصورة النمطية التي سقطت من خلالها غوستاف لوبون في فخ التحامل الصارخ عند وصفه للشخصية الجزائرية، حيث وصم الإنسان الجزائري بصفات شنيعة تفتقر إلى أدنى معايير الموضوعية العلمية؛ فوصفه بـ"الخامل، المتمرد، المكسال، والوضيع"، زاعماً أن نزوعه للتححرر من الحكم الأجنبي ما هو إلا رغبة في العصيان الفطري.

إن هذه الأوصاف لا تصمد أمام القراءة الفاحصة للتاريخ الثقافي والاجتماعي للجزائر، ويمكن دحضها من خلال الشواهد العلمية التارية التالية:

1- العطاء العلمي والفكري (جزائر بني مزغنة نموذجاً)

خلافاً لما ادعاه لوبون من "كسل وضعة"، كانت مدينة الجزائر وأحوازها في العصر الإسلامي الوسيط منارةً للعلم والعمل، وأنجبت نخبة من العلماء الذين أثروا المكتبة الإسلامية بمؤلفات غطت العلوم العقلية والنقلية. ومن أبرز هؤلاء الأعلام:

- الإمام عبد الرحمن الثعالبي الذي يعد قطباً من أقطاب الفكر والتفسير
- أبو عبد الله محمد بن الحسن القلعي الفقيه المتبحر.
- أحمد بن عبد الله الجزائري الزواوي أحد كبار المشتغلين بالتصنيف والبحث.
- الشيخ محمد بن محمد العطار الجزائري وغيرهم ممن بذلوا جهوداً مضيئة في ميدان التأليف⁸.

2- التأثير المعرفي والاجتماعي

إن الرصيد الثقافي الغزير الذي تركه هؤلاء العلماء يعكس حياة فكرية نشطة وبيئة اجتماعية تقدر العمل والبحث العلمي، وهو ما يتناقض جذرياً مع صورة "المتخاذل" التي حاول لوبون رسمها، هذا النتائج لم يكن مجرد اجتهادات فردية، بل كان ظاهرة حضارية شاملة انعكست إيجاباً على تطور المجتمع الجزائري في مختلف مجالات العلوم والآداب.

3- المقاومة كفعل حضاري

ما وصفه لوبون بـ "التمرد والعصيان" هو في الحقيقة فعل مقاومة مشروع للخلاص من القهر الاستعماري. فالجزائري الذي اتهمه لوبون بـ "الوضاعة" هو نفسه الذي خاض معارك الوعي والبناء الحضاري، ولم تكن ثوراته إلا دفاعاً عن أرضه وهويته التي حاولت المركزية الأوروبية طمسها بصيغة استعلائية.

ثالثاً: بطل المعالم الجغرافية للمجال المغربي

فيقول لوبون في سياق دول المنطقة: "نقصد بإفريقية الشمالية البلاد التي تشمل على مراكش والجزائر وتونس وطرابلس الغرب"⁹

اعتمد غوستاف لوبون في تعريفه لشمال أفريقيا على رؤية مجتزأة تتماشى مع الخارطة الاستعمارية التقليدية، حيث حصر المنطقة في "مراكش، الجزائر، تونس، وطرابلس الغرب"، متجاهلاً عمداً أو جهلاً الامتدادات الجغرافية الحيوية المتمثلة في الصحراء الغربية وموريتانيا، واللتين تشكلان جزءاً أصيلاً لا يتجزأ من الكيان المغربي.

إن المجال المغربي يتمتع بحدود جغرافية وتاريخية واضحة، الأمر الذي يستدعي مراعاة هذه الخصائص عند تناول المنطقة في الدراسات التاريخية والجغرافية، فكل الأدلة تفند هذا القصور الجغرافي الذي ذكره لوبون، ولعل أهمها:

1- المفهوم التاريخي الشامل لبلاد المغرب

خلافًا لتعريف لوبون الضيق، يؤكد المؤرخون، ومنهم الدكتور سعد زغلول أن مصطلح "المغرب" عند الجغرافيين العرب الأوائل كان يشمل كل الأقاليم الواقعة غرب مصر، ويمتد هذا المجال من تخوم السودان جنوباً بالنسبة للجزائر، وصولاً إلى ضفاف نهرى السنغال والنيجر بالنسبة للمغرب الأقصى الذي كان يُعرف بمراكش¹⁰.

2- الحدود الجغرافية والسياسية بين الاتساع والضييق

تأرجح مدلول "المغرب" في الفكر الجغرافي العربي وفق مستويين:

- المدلول الواسع: شمل الأراضي من البحر الأحمر شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، بما في ذلك الأندلس وجزر البحر المتوسط.
- المدلول العرفي المغربي: استقر العرف لدى أهل المنطقة على استثناء مصر وبرقة، ليبدأ المغرب من إقليم طرابلس ويمتد غرباً ليشمل كافة الحواضر والبوادي التي كانت موطناً تاريخياً للأمازيغ وداراً للإسلام.

3- العبقرية الجغرافية والحدود الطبيعية

تحتل بلاد المغرب موقعاً استراتيجياً يحكم طرق المواصلات في حوض المتوسط، وتتميز بحدود طبيعية واضحة تمنحها وحدة جغرافية متماسكة:

- شمالاً وغرباً: البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي.
- شرقاً: الخط الفاصل بين ولايتي طرابلس وفزان وولاية برقة.
- جنوباً (الحد الأقصى): يمتد المغرب وفقاً لتأصيل ابن خلدون وغيره من الجغرافيين إلى "الرمال المتهللة" - العروق - التي تفصل بلاد المغرب عن بلاد السودان. وتبدأ هذه الحدود من الأطلسي شرقاً عبر سلسلة من "العروق" الضخمة، مثل عرق إيكيدى، وعرق شيش، والعرق الغربي الكبير تتخللها أراضٍ صخرية تُعرف بـ "الحمادات".

إن اختزال لوبون للمنطقة في أربعة أقطار فقط ليس مجرد خطأ جغرافي، بل هو طمس لمعالم الهوية الصحراوية والامتداد الأفريقي للمغرب العربي، فالمجال المغربي وحدة طبيعية وبشرية تبلغ أبعادها أكثر من 2000 كم عرضاً و3000 كم طولاً، وهي مساحة تفرض نفسها ككتلة جغرافية واحدة لا يمكن تجزئتها وفق المقاييس الاستعمارية الضيقة¹¹.

رابعاً: دعوى انحسار اللغة الأمازيغية في بلاد المغرب:

ذكر لوبون في ما ذكره من ادعاءات حول سكان المغرب الإسلامي؛ أن اللغة الأمازيغية انحسرت ولا يتحدث أحد بها في غير الجبال أو البقاع البعيدة جداً من المدن.¹²

إن رؤية لوبون تفتقر للمعايينة الميدانية الدقيقة، وغلب عليها الطابع "الاستشراقي التبسيطي" الذي يهدف إلى عزل المكونات الثقافية لبلاد المغرب عن سياقها التاريخي والجغرافي الفاعل، وهو ما نلاحظه في بعض كتاباته في هذا السياق، إذ أدعى أن اللغة الأمازيغية لا تستعمل إلا في المناطق الجبلية أو في الأماكن البعيدة عن المدن، وسعى إلى تهميش البعد اللغوي الأمازيغي، مدعياً أن اللغة البربرية (الأمازيغية) قد انحسرت تماماً ولم يتبق لها وجوداً إلا في الجبال النائية أو الأصقاع البعيدة جداً عن مراكز المدن، وهذا الادعاء يمثل طمسا للهوية اللغوية وتجاهلاً للواقع السوسولوجي في شمال أفريقيا.

و تفند هذه المغالطات؛ الحقائق الكثيرة على الأرض البارزة في الحياة الاجتماعية لسكان بلاد المغرب أهمها:

1 - الخرائط الديموغرافية واللغوية المعاصرة تدل خلافا لمزاعم لوبون، فاللغة الأمازيغية تنتشر كعنصر حيوي في قلب المدن والأقاليم، وليس فقط في العزلة الجبلية حيث نجد:

- ففي الجزائر: يشكل الأمازيغ جزءاً جوهرياً من النسيج المجتمعي، ويمتد وجودهم من منطقة

القبائل (تيزي وزو، البويرة، بجاية) إلى الشرق والأوراس (باتنة، خنشلة، تبسة)، وصولاً إلى عمق

الصحراء الكبرى (غرداية وتمنراست).¹³

- وفي المغرب: ينتشر المتحدثون بها في سلاسل جبال الأطلس وفي كبرى المدن مثل الدار البيضاء والرباط، والأرياف الشمالية مثل أكادير وإفران.

- وفي تونس وليبيا: ما تزال الأمازيغية لغة حية في جربة وتطاوين وقفصة (تونس)، وفي جبل نفوسة وزوارة (ليبيا).

2 - تشير الدراسات التاريخية إلى أن الأمازيغ يُعدّون من السكان الأصليين لشمال أفريقيا قبل الفتح الإسلامي، فالأمازيغ كقوة حضارية وتاريخية ليس كما حاول لوبون تصوير الأمازيغ كأقلية "معزولة" فدعوته تصطدم بحقيقة أنهم السكان الأصليون للمنطقة.

وهم الشعب الذي لم يكتفِ باستقبال الفتح الإسلامي فحسب، بل صار ركيزة أساسية في الدولة الإسلامية؛ إذ ساهموا بفعالية في الفتوحات الكبرى، وفي مقدمتها فتح الأندلس، مما جعل لغتهم وهويتهم جزءاً من التاريخ العالمي لا مجرد لهجة محلية منسية.

3 - التزييف الممنهج للواقع المدني، فحين يحصر لوبون اللغة الأمازيغية في "البقاع البعيدة" فهو يحاول تجريد الأمازيغية من صبغتها المدنية والحضارية، فالواقع يثبت أن الحواضر الجزائرية

والمغربية ظلت دائماً فضاءات مفتوحة للتعدد اللغوي، حيث تعايشت الأمازيغية مع العربية، وشكلتا معاً الهوية الثقافية المتكاملة للمنطقة.

خامساً: السردية التاريخية ومبالات لوبون حول "ملكة الكاهنة"

يقول في لوبون في هذا السياق من المغالطات: "مقاومة الملكة البربرية الكاهنة التي ألقت بين كثير من قبائل البربر وتسلمت القيادة، وقاتلت العرب وكتب لها النصر في المعركة الأولى وهزمت العرب، واستولت على جميع شمال أفريقيا"¹⁴

إن مسألة المبالغة أو التعميم في بعض الروايات الاستشراقية مقارنة بما تقدّمه المصادر التاريخية العربية والإسلامية، وهي إشكالية مهمة نلاحظها في كتابة تاريخ الفتح الإسلامي لشمال أفريقيا، ويعد موضوع الفتح الإسلامي للجزائر من القضايا التي شابها قدر من التهويل في بعض الكتابات الاستشراقية، ومن ذلك ما وقع فيه غوستاف لوبون في خطأ تاريخية ومنهجية عند حديثه عن حركة المقاومة التي قادتها "ديهيا" (المعروفة بالكاهنة)، حيث زعم أنها "استولت على جميع شمال أفريقيا" بعد هزيمتها للعرب الفاتحين في المعركة الأولى، ولكن طرحه يمثل تزويراً للأحداث التاريخية عبر تضخيم النطاق الجغرافي لسيطرتها بما يخالف المصادر التاريخية الموثوقة.

ومن خلال الحقائق التاريخية والجغرافية يظهر زيف هذه الرؤية حيث:

1 - تثبت المصادر التاريخية أن النطاق الجغرافي الحقيقي للمملكة، ونفوذ "ديهيا" لم يشمل شمال القارة الأفريقية بأكملها، بل اقتصر على أجزاء واسعة من المغرب الأدنى والأوسط (ما يعرف اليوم بتونس، وليبيا، وأجزاء من الجزائر).

كانت تحركاتها تهدف بالأساس إلى استعادة أراضي مملكتها الأصلية وتوحيد القبائل الأمازيغية تحت قيادتها في أواخر القرن السادس الميلادي.

2 - تمكنت من تحرير مدينة خنشلة من الاحتلال الروماني، كما قادت المواجهة مع الفاتحين والتي حققت انتصارات عسكرية، بداية من انتصارها في وادي مسكيانة على الجيش الإسلامي، وأجبرته للتراجع المؤقت نحو الشرق، كانت محكومة بسياق الكر والفر، وأبرزها هزيمة جيش حسان بن النعمان؛ أين تمكنت من وقف زحف الجيش الإسلامي ومطاردته حتى أخرجه من تونس وطرابلس، وصولاً إلى منطقة "قصور حسان" في سرت، مما اضطر القائد حسان للاحتباء ببرقة.¹⁵

3 - رغم الصراع العسكري، لم ينظر المسلمون لـ "ديها" بخصومة مطلقة، بل تحولت في مصادرهم إلى رمز للشجاعة والذكاء والتضحية.

إن تصوير لوبون لها كفاتحة لكل شمال أفريقيا يغفل حقيقة أنها كانت تقاتل في جبهات متعددة (ضد الرومان، البيزنطيين، والمسلمين الفاتحين) لاستعادة ملكها القومي، ولم تكن سيطرتها إمبراطورية شاملة كما حاول لوبون تصويرها لخدمة غرض التشكيك في سرعة واستقرار الفتح الإسلامي.

سادسا: نسج فرضيات اسطورية من محض خياله حول مستقبل الفتح الاسلامي لبلاد المغرب

يذكر لوبون في سياق مقاومة الكاهنة للفاتحين المسلمين: "كان مصير شعب هذه السيدة التي أَلقت الرعب في قلوب العرب والروم يكون غير ما حدث لو لم تقتل في إحدى المعارك"¹⁶

ينطوي طرح غوستاف لوبون على قدر من المبالغة، سواء في تصوير حجم التأثير الذي أحدثته "ديها"، أو في بناء فرضية تاريخية قائمة على حدث افتراضي، فهو يقدم رؤية استشرافية قائمة على "التأويل الافتراضي" عند حديثه عن مقتل الملكة "ديها" (الكاهنة)، زاعماً أن مصير المنطقة ومسار التاريخ كان سيتغير جذريا لو لم تُقتل في ساحة المعركة، واصفا إياها بالشخصية التي "أَلقت الرعب" في قلوب العرب والروم على حد سواء، غير أن

مزاعم لغة "الرعب" التي استخدمها لوبون تعد مبالغة خطابية تهدف إلى تضخيم العائق العسكري أمام الفاتحين، وتصوير الفتح الإسلامي وكأنه كان معلقاً بصدفة عسكرية (مقتل القائدة).

بالرغم من اعتراف المصادر العربية بذكاء "ديها" وشجاعتها وسموها كرمز للتضحية الوطنية، إلا أن استخدام لوبون لمصطلح "الرعب" قد يشكل صعوبات مؤقتة لا عوائق نهائية، والأجدر بالتحليل هو القول بأن بقاء "ديها" على قيد الحياة كان سيؤدي - بلا شك- إلى زيادة الصعوبات الميدانية وإطالة أمد المواجهات وتعطيل تقدم الجيوش زمنيا، لكنه لم يكن ليمنع "حتمية الفتح" لأن الفتوحات الإسلامية في تلك المرحلة كانت تستند إلى عوامل عسكرية وسياسية وتنظيمية قوية، تجعل من الصعب افتراض توقفها بسبب مقتل قائد أو بقائه، بما في ذلك "ديها"، إذ كان من المرجح أن تستمر هذه الفتوحات، ولو بوتيرة متفاوتة، إلى أن تحقق أهدافها في المنطقة، لأن المعطيات التاريخية تؤكد

أن حركة الفتح الإسلامي كانت تياراً حضارياً وعسكرياً جارفاً يمتلك استراتيجيات استمرارية لا تتوقف على غياب الأفراد.

سابعاً: وصف "لوبون" أهل المغرب وصفاً عنصرياً

سار غوستاف لوبون مساراً عنصرياً صريحاً حين عقد مقارنة تقليدية بين العربي والأمازيغي (البربري)، زاعماً أن الأخير "أقل ذكاءً وأشدّ حقداً وطغياناً"¹⁷.

إن وصف لوبون للأمازيغ بالهمجية ونقص الذكاء متجاهلاً حقيقة أن هذا الشعب هو الذي أمد الدولة الإسلامية بأعظم قادتها وجنودها، وأن ما سماه "طغياناً" لم يكن إلا صلابة في الحق ودفاعاً مستميتاً عن الحرية، وهي صفات تحولت تحت راية الإسلام إلى طاقة بناءة شيدت صرح الحضارة في الأندلس وبلاد المغرب.

إن هذا الوصف لا يعدو كونه حكماً انطباعياً يفتقر للمصداقية العلمية، ويمكن دحضه من خلال قراءة موضوعية للواقع التاريخي وعبقورية التنظيم الأمازيغي، فخلافاً لما روج له لوبون من نقص في الذكاء، أظهرت القبائل الأمازيغية دهاء عسكرياً فائقاً وتمرساً في فنون القتال مكنها من مواجهة أقوى الجيوش النظامية (كالبيزنطيين) والجيوش الفاتحة (كالعرب).

لم يكن غياب الوحدة السياسية الشاملة قبل الإسلام دليلاً على "نقص الذكاء"، بل كان نتاج نظام قبلي يقدر الاستقلال الذاتي، حيث كانت التحالفات تُبنى على المصالح المشتركة والولاء للأرض، وهو ما جعل المنطقة عرضة لغزوات متتالية (فينيقيين، رومان، ونдал) بسبب تشتت الهوية السياسية العقلية.

شكل الإسلام عامل وحدة وانصهار حضاري، فجاء ليقدم للمجتمع الأمازيغي ما كان يفتقده؛ وحدة العقيدة والثقافة والمصير، وبدلاً من "التوحش" الذي زعمه لوبون، أظهر الأمازيغ مرونة حضارية مذهلة في استيعاب الدين الجديد والتحول من "مدافعين عن الأرض" إلى "فاتحين ومبشرين" بالرسالة.

أكبر دليل يدحض ادعاءات لوبون هو الدور القيادي للأمازيغ في بناء الحضارة الإسلامية، حيث برز القائد طارق بن زياد الأمازيغي الجزائري كعقلية استراتيجية فذة قادت الجيوش لفتح الأندلس، وكذلك تشكل جيش موسى بن نصير من مزيج عبقري ضم 17,000 من العرب و12,000 من

الأمازيغ¹⁸، مما يعكس ذكاء اجتماعيا وقدرة على الانصهار في بوتقة واحدة، فنجح هذا التحالف في نقل مجال المواجهة من داخل بلاد المغرب إلى خارجها، ليقف العربي والأمازيغي في خندق واحد لمواجهة القوى الخارجية (كالقوط الغربيين)، محققين انتصارات غيرت وجه التاريخ الأوروبي.

وعليه، فإن وصف البربر بالتوحش أو نقص الذكاء لا يعكس حقيقة تاريخية، بقدر ما يعبر عن رؤية متحيزة تتجاهل طبيعة البنية الاجتماعية والسياسية لتلك المجتمعات، ودورها الفاعل في التحولات التاريخية اللاحقة.

ثامنا: الطوارق بين افتراءات الاستشراق وحقيقة الأنثروبولوجيا الصحراوية

يذكر غوستاف لوبون وصفاً للطوارق مفاده أنهم "بدوٌ نهابون غدارون"¹⁹، وهو حكم يتسم بالتعميم والاختزال، ولا يعكس بدقة طبيعة هذا المجتمع الصحراوي وتعقيداته، فمثل هذه الأوصاف تندرج ضمن التصورات النمطية التي كثيراً ما طبعت بعض الكتابات الاستشراقية.

إن خطاب لوبون تجاه الطوارق يندرج ضمن "سوسيولوجيا الاستعلاء"، حيث عجز عن فهم فلسفة "الإنسان الصحراوي" الذي يضع الكرامة فوق كل اعتبار، فالطوارق لم يكونوا "غدارين"، بل كانوا حراساً للقيم الأخلاقية في بيئة لا ترحم، ومقاتلين أشداء دافعوا عن استقلالهم ضد كل من حاول كسر شوكتهم

إن القراءة المنصفة لتاريخ الطوارق (أسياد المثلثين) تكشف عن حقائق مغايرة تماماً لما روج له الفكر الاستعماري، فالطوارق ليسوا مجرد "بدو رحل"، بل هم ورثة إحدى أقدم الحضارات الإنسانية في الصحراء الكبرى، وهو ما تؤكد الاكتشافات الأركيولوجية والأنثروبولوجية التي تثبت تجذرهم الأصيل في المنطقة (من الجزائر وصولاً إلى نهر النيجر)، هم شعب مسلم متمسك بلغته الأمازيغية وهويته التي صهرتها رمال الصحراء وقيم الأنفة والاستقلال.

وخلافا لادعاء "الغدر"، يتميز المجتمع الطارقي بنظام طبقي صارم يتصدره "النبلاء" الأحرار والأسياد، الذين عُرفوا بعزة النفس والأنفة والتمسك بالحرية المطلقة ورفض الخضوع لأي سلطة أجنبية.

وقد عُرفوا بالحدز الاستراتيجي الذي وصفه البعض بـ "الغموض" أو رفض البوح بالأسماء للغرباء (كما ذكر هنري دوفري) لم يكن غدرًا، بل كان بروتوكولاً أمنياً وحفاظاً على الخصوصية القبلية لتفادي الغزو أو الحصار.

كما يجب فهم ما سماه لوبون "نهباً" في سياقه البيئي والاجتماعي الصحيح، ففسوة الطبيعة دافعا للجوء بعض الفئات لعمليات الغزو لم يكن نزعة إجرامية، بل كان "سلوكاً اضطرارياً" تفرضه سنوات القحط والجوع القاتل، فقد تميز أهل الصحراء بأخلاقهم حتى في حالات الاضطرار، وهو ما أكدته بعض الدراسات (مثل دراسة م.هـ. لولونغ - M.h lolnge).

فحمل السلاح لدى الطارقي هو رمز للشجاعة والذود عن الحمى، وليس أداة للغدر كما زعم لوبون.

كما اعتمد الطوارق في معيشتهم على الرعي والتنقل والتجارة عبر الصحراء، غير أن قسوة البيئة الصحراوية وما تفرضه من ظروف مناخية قاسية، كالجفاف وندرة الموارد، قد تدفع بعضهم أحياناً إلى ممارسات كالغزو أو السلب، وهي سلوكات ظرفية ارتبطت بالبقاء أكثر من كونها سمة ثابتة في شخصيتهم الاجتماعية، وقد أشار إلى ذلك أيضاً م.هـ. لولونغ (M.h lolnge)، مؤكداً أن هذه الأفعال كانت نتيجة مباشرة للظروف البيئية الصعبة²⁰.

من خلال ما ذكرنا يتبين أن وصف الطوارق بالنهايين أو الغدارين يُعدّ افتراءً مخلا يتجاهل العوامل البيئية والاجتماعية التي شكلت نمط عيشهم، كما يغفل عن تاريخهم ودورهم في شبكة التبادل التجاري والثقافي عبر الصحراء، وما تميزوا به من قيم الصبر والاستقلال والقدرة على التكيف مع محيطهم القاسي.

تاسعاً: دعوى ألا تمدن الأمازيغ وعدم استعدادهم للتمدن

يرى غوستاف لوبون أن "تقاعس البربر وقلة استعدادهم للتمدن" يجعلهم دون العرب في بلوغ مراتب الحضارة، معتبراً أن التاريخ يثبت تفوق العرب حضارياً.²¹

وقع غوستاف لوبون في مغالطة تاريخية حين زعم "قلة استعداد البربر (الأمازيغ) للتمدن"، مدعياً أنهم لم يبلغوا درجة رفيعة من الحضارة مقارنة بالعرب، فقد غفل هذا طرح شواهد مادية واقتصادية ومعمارية تؤكد أن الأمازيغ شيّدوا حواضر ضاربة في العمق الحضاري، سبقت واستمرت جنباً إلى جنب مع الحواضر العربية.

فالحواضر الأمازيغية من قفصة إلى سجلماسة، ومن قلعة بني حماد إلى مراكش، تقدم دليلاً مادياً على أن الأمازيغ لم يكونوا مجرد "مستعدين" للتمدن، بل كانوا صُنّاعاً ومبدعين له، حيث أقاموا نظاماً اقتصادياً وهندسية ومعمارية تضاهي، وفي أحيان كثيرة تتكامل، مع ما قدمه أشقاؤهم العرب في المشرق.

تؤكد المصادر الجغرافية والتاريخية ازدهار عدد من الحواضر المغاربية، وعرفت نشاطاً اقتصادياً وعمرانياً ملحوظاً، حيث وصفها اليعقوبي بالتقدم العمراني والزراعي، وأشار الإدريسي إلى ازدهار أسواقها وكثرة صناعاتها، في حين عدّها ابن خلدون متقدمة العمران والحضارة.

ومما يمكن إبطال فرضيات لوبون به ما ذكره المؤرخون من نماذج للمدن شاهدة على التمدن والازدهار في بلاد المغرب الاسلامي، ومنها:

- مدينة قفصة التي اعتبرها المؤرخون نموذجاً للحضارة المستبصرة²²

خلافاً لزعـم لوبون، كانت مدينة قفصة الأمازيغية في عهد الموحدين مركزاً اقتصادياً وتكنولوجياً متطوراً، شهد له كبار الجغرافيين:

فمن حيث العمران وصفها ابن خلدون بأنها مدينة "مستبصرة العمران مستحكمة الحضارة"، وأشاد اليعقوبي والإدريسي بأسواقها العامرة وصناعاتها القائمة.

ومن حيث العبقرية الهندسية تجلّى "الاستعداد للتمدن" في ابتكار سكانها لأنظمة ري معقدة، حيث استخدموا آلات هندسية وحسابية دقيقة لنقل المياه وتوزيعها، مما يعكس وعياً تقنياً متقدماً.

ومن حيث التنوع الإنتاجي برعت المدينة في الزراعة (أجود تمر، أفريقيا، الفستق، التفاح) وفي الصناعات الدقيقة (المنسوجات، الخزف، الزجاج، والعطور).

- الحواضر التجارية (المرابطية والموحدية)

أثبتت الدولتان (وهما دولتان ذات أصول أمازيغية) قدرة فائقة على إدارة الاقتصاد العالمي في زمانيهما، فسجل ماسة تحولت في ظل المرابطين إلى مركز تجاري عالمي يربط الصحراء بالشرق، وقصدها التجار من بغداد والكوفة والبصرة، لتصبح شريان الحياة الذي يمد أسواق المغرب والشرق بالسلع الثمينة²³.

- الإبداع المعماري (الحماديون والزيانيون)

حيث ترك الأمازيغ إرثاً معمارياً يعد حجة بصرية تقطع الشك باليقين حول رقي تمدنهم؛ فبرع الحماديون في تشييد صروح معمارية من قصور وحصون مذهلة مثل "قصر المنار" و"قصر البحر"، والتي جمعت بين الوظيفة الدفاعية والجمالية الفنية، كما ساهم الأمازيغ في بناء وتطوير منارات

العلم والعبادة كجامع الزيتونة، مما يؤكد أن استعدادهم للتمدن شمل الجوانب الروحية والعلمية والمعمارية على حد سواء.

وعليه، فإن المعطيات التاريخية تفنّد الادعاء بقلة استعداد الأمازيغ للتمدن، وتؤكد أنهم كانوا طرفاً فاعلاً في بناء حضارة مزدهرة في بلاد المغرب، بما يعكس تفاعلاً حضارياً مشتركاً بين مختلف مكونات المجتمع، بعيداً عن الأحكام التعميمية.

من أهم نتائج البحث في هذا الموضوع

إن دراسة غوستاف لوبون تتطلب يقظة نقدية؛ فكتابه "حضارة العرب" رغم قيمته الوثائقية، يظل مشحوناً برؤى عرقية مسبقة حاولت عزل المغرب العربي عن سياقه المشرقي الأصيل، وتصوير إنسانه ككائن "هجين" أو "متوحش".

وبذلك، يظل الرد العلمي القائم على الأركيولوجيا والتاريخ السوسيولوجي هو السبيل الوحيد لإعادة الاعتبار للهوية المغاربية والجزائرية الضاربة في أعماق الحضارة الإنسانية، وهو ما وهو ما توصلنا إليه من نتائج نوجزها في مايلي:

- كشفت الدراسة عن "ازدواجية معايير" صارخة في فكر لوبون؛ فبينما نصّب نفسه مدافعاً عن الحضارة العربية في مشرقها، معتبراً إياها "ممدنة أوروبا"، سقط في فخ المركزية الاستعمارية عند تناوله للمغرب العربي عموماً والجزائر خصوصاً، فتبنى لوبون خطاباً يهدف إلى تفتيت الوحدة الحضارية للمنطقة عبر الطعن في نسب سكانها (دعوى التهجين)، وتشويه خصائصهم الأخلاقية (وصفهم بالكسل والوضاعة)، وطمس امتدادهم الجغرافي واللغوي.
- أظهر البحث أن ما وصفه لوبون بـ "التمرد والغدر" (سواء لدى سكان المدن أو الطوارق أو تحت قيادة الملكة ديهيا) لم يكن إلا فعلاً حضارياً مشروعاً للدفاع عن السيادة والهوية، فانصهار المكونين العربي والأمازيغي تحت راية الإسلام حوّل تلك "الطاقة القتالية" إلى قوة بناءة شيدت حضارة الأندلس وبلاد المغرب، وهو ما حاول لوبون إنكاره عبر تصوير الأمازيغ كعنصر "أقل ذكاءً" أو "غير مستعد للحضارة".
- فندت المعطيات العلمية والبقايا الأثرية ادعاءات لوبون حول "تششت الأنساب"؛ حيث أثبتت الحفريات وتاريخ الأنساب؛ الوحدة السلالية والارتباط العضوي بين إنسان المغرب والمشرق منذ العصور الحجرية، كما تهافتت فرضياته التاريخية حول "عجز الأمازيغ عن التمدن" أمام الشواهد الحية لمدن كقفصة وسجلماسة وقلعة بني حماد، والتي عكست عبقرية هندسية واقتصادية ومعمارية سبقت عصر لوبون بقرون.

- إن إنصاف لوبون لبعض جوانب الحضارة الإسلامية لا ينبغي أن يحجب عنا "سموم" أطروحاته التي استهدفت الهوية الجزائرية والمغربية، فمدحه العام للعرب كان يقابله قبح خاص وتفصيلي في إنسان المنطقة، مما يجعله نموذجاً للمستشرق الذي يستخدم "الإنصاف الظاهري" كغطاء لتمرير رؤى تخدم الهيمنة الثقافية والسياسية الغربية.

من أهم التوصيات:

- الاهتمام بترجمة المصادر الأجنبية ذات القيمة البحثية للاستفادة منها، و كذلك الرد عليها خاصة إذا كانت منتشرة مثل كتاب " حضارة العرب"
- ضرورة إنشاء دراسات ومجلات علمية موسوعية متخصصة، مهمتها الرد على مثل هذه القضايا بما يساير مستوى الدراسات الغربية بعيدا عن التعصب، والتعريف بالإسلام وابعاده الحضارية.

المراجع:

- 1 - فايز بن علي الشهري، غوستاف لوبون، المركز الثقافي للكتاب، الدار البيضاء، المغرب. ط1. 2019. ص 22، 23
- 2 - كرد، علي محمد، 1932، الاسلام والحضارة العربية، ج 2، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة. ص40
- 3-غوستاف لوبون، حضارة العرب. ترجمة عادل زعيتر. مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. القاهرة. 2013 ص 447-583
- 4- غوستاف لوبون، اليهود في تاريخ الحضارات الأولى، ترجمة عادل زعيتر. مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. القاهرة. 2017 ص 13- 24
- 5- بوزقاو، مريم، 2020، الاستشراق بين الرفض والقبول في الثقافة العربية، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه في الادب العربي نظام (ل م د)، تخصص: الادب الاندلسي في ضوء الدراسات الشرقية جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، ص65- 87.
- 6- سورة البقرة: الآية 120.
- 7- غوستاف، لوبون، حضارة العرب، مصدر سابق، ص85.
- 8- قريشان، عبد القادر، 2020، الانتاج المعرفي لعلماء مدينة الجزائر (جزائر بني مزغنى) في مجلة العلوم النقلية خلال العصر الاسلامي الوسيط دراسة احصائية تحليلية، تاريخ العلوم، المجلد 5، العدد 3، الصفحة 402-415.
- 9- غوستاف، لوبون، حضارة العرب، مصدر سابق، ص 255.
- 10- عبد الحميد، سعد زغلول، 1993. تاريخ المغرب العربي، مؤسسة المعارف، الاسكندرية، مصر. ج 1، ص 61-88
- 11- الصلابي، علي محمد، 2007، الفتح الاسلامي في الشمال الافريقي، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع، ص7.

- 12- غوستاف، لوبون، حضارة العرب، مصدر سابق، ص 260.
- 13- السويدي، محمد، 1989، بدو الطوارق بين الثبات والتغير، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص 25.
- 14 - غوستاف، لوبون، حضارة العرب، مصدر سابق، ص 260.
- 15- العذاري، أحمد بن محمد، 1950، البيان المغرب في اخبار الاندلس و المغرب، مكتبة صادر، بيروت. لبنان. ج 1، ص 36-37.
- 16- غوستاف، لوبون، حضارة العرب، مصدر سابق، ص 262.
- 17- غوستاف، لوبون، حضارة العرب، مصدر سابق، ص 260.
- 18- الثعالبي، عبد العزيز، 1990، تاريخ شمال افريقيا من الفتح الاسلامي إلى نهاية الدولة الاغلبية، دار الغرب الاسلامي، ط2، بيروت، ص 145 .
- 19- غوستاف، لوبون، حضارة العرب، مصدر سابق، ص 262.
- 20 - زرارة زهيرة، و ميلود، حاج عامر ، أزمة الطوارق في منطقة الساحل الافريقي، مجلة افاق العلوم، العدد العاشر جانفي 2018، ص 291.
- 21 - غوستاف، لوبون، حضارة العرب، مصدر سابق، ص 264.
- 22 - ابو مصطفى، كمال السيد، 1996، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الاسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المغرب للنشر، الاسكندرية، مركز الكتاب، ص 89-120.
- 23 - محمود، حسن احمد، 2014، قيام دولة المرابطين، صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى، دار الفكر، القاهرة، ص 205.